فضل الصمت وحفظ اللسان

الشيخ ندا أبو أحمد

الألوكة
alukah.net

الكتاب الجامع للفضائل

(٤٥)

فضل الصمت وحفظ اللسان

الشيخ/ندا أبو أحمد

فضل الصمت وحفظ اللسان

تمهيد

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهد الله ُفلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠، ٧١)

أما بعد....

فإن أصدق الحديث كتاب الله ــ تعالى ــ، وخير الهدي، هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

نبض الرسالة

فضل الصمت وحفظ اللسان

مقدمة:

إذا استقام اللسان استقامت جوارح الإنسان.

أولًا: فضل حـــفـــظ اللســـان

١- حفظ اللسان علامة على الإيمان والإسلام.
٢- حفظ اللسان ليس فقط من الإسلام، بل هو الإسلام نفسه.
٣- حفظ اللسان دليل على سلامة القلب.
٤- حفظ اللسان سبيل لستر عورة الإنسان.
٥- حفظ اللسان دليل على فضل صاحبه.
٦- حفظ اللسان إلا من طيب الكلام: من أفضل الأعمال.
٧- حفظ اللسان إلا من طيب الكلام: صدقة.
٨- حفظ اللسان إلا من طيب الكلام: موجب للمغفرة.
٩- حفظ اللسان إلا من طيب الكلام: سبب للفوز برضوان الله.
١٠- حفظ اللسان إلا من طيب الكلام: رفع في الدرجات.
١١- حفظ اللسان إلا من طيب الكلام: سبيل للنجاة من النار.
١٢- حفظ اللسان إلا من طيب الكلام: سبيل لدخول الجَنَّة.

ثانيًا: فضل الصمت

وصايا الرسول في حفظ اللسان والحث عليه، وبيان ثواب وأجر من قام بذلك.
وجوب حفظ اللسان في زمن الفتن.
تَوَرُّع السلف عن آفات اللسان في الفتن*رُبَّ قولٍ يسيل منه دم.**

.إكمالًا للموضوع واتمامًا للفائدة: أتحدث عن الترغيب في ترك فضول الكلام

الآثـــار التي تحث على ترك فضول الكلام.

علاج فضول الكلام.

مقدمة

إن اللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جرْمُهُ[1]، عظيمٌ طاعتُه وجُرْمُهُ، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان، وهما غاية الطاعة والعصيان، ولا يكبُّ الناس في النار على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله" اهـــ. (بتصرف واختصار من إحياء علوم الدين:٣/١٠٨)

ومع أن اللسان لا تعب في إطلاقه، ولا مئونة في تحريكه، إلا أن كل حرف منه مسطور.

قال تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ (آل عمران:١٨١)

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الانفطار:١٠-١٢)

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (الزخرف:٨٠)

قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٨)

معنى ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾: يعني مراقب معد لذلك، لا يترك كلمة تفلت.

تلا الحسن البصري قوله تعالى:﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ(١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٧،١٨)، فقال: "يا ابن آدم بسطتْ لك صحيفة، ووكِّل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يســـارك فيحفظ سيئتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طُـــويتْ صحيفتك، وجُعِلتْ في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة"، فعند ذلك يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (الإسراء: ١٣،١٤)، **ثم قال:**

" عدل والله فيك مَن جعلك حسيب نفسك ".

موعظة:

يا كثيرَ الكلام حسابك شديد، يا مؤثرًا ما يضره ما رأيك سديد، يا ناطقًا بما لا يجدي ولا يفيد: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ كلامك مكتوب، وقولك محسوب، وأنت يا هذا مطلوب، ولك ذنوب وما تتوب: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أتظن أنك متروك مُهْمَل، أم تحسب أنه يُنْسى ما قد تعمل،

١- الجِرْمُ: شيء مجسد.

أو تعتقد أن الكاتب يغفل، يا قاتلًا نفسه بكفه لا تفعل، يا مَن أجلُه ينتقص ولا يزيد: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

– يقول فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد–رحمه الله– مُبينًا مسئولية الكلمة وخطرها–:

" إن جارحة اللسان الناطق بالكلام المتواطئ عليه، أساس في الحياة والتعايش دينًا ودنيا، فبكلمة التوحيد يدخل المرء في مِلَّة الإسلام، وبنقضها يخرج منها، وبين ذلك مراحل انتظمت أبواب الشريعة، فلو نظرت إلى الكلام وما بني عليه من أحكام لوجدت من ذلك عجبًا في: الطهارة، الصلوات، وسائر أركان الإسلام، والجهاد، والبيوع، والنكاح، والطلاق، والجنايات، والحدود، والقضاء...، بل أُفردت أبواب في الفقهيات كلها لما تلفظ به هذه الأداة: (اللسان)، في أبواب: القذف، الردة ــ والأيمان، والنذور، والشهادات، والإقرار، وفي أصل الأصول: (التوحيد) يدور عليه البحث والتأليف، فكم من كلامٍ أوجب ردة فقتلًا، أو أوجب قذفًا فجلدًا، أو أوجب كفارات، أو نزعت بسببه حقوق فردت مظالم إلى أهلها، أو إقرار أوجب بمفرده حكمًا، وإذا قالوا: "إقرار المرء على نفسه أقوى البيِّنات"، وهكذا في مناهج الشريعة المباركة الغراء، ولهذا تكاثرت نصوص الوحيين الشريفين في تعظيم شأن اللسان ترغيبًا وترهيبًا، وأفرد العلماء في جمع غفير من مفرداته المؤلفات، ففي الترغيب: الدعوة إلى الله علم بصيرة، ونشر العلم بالدرس، وفضل الصدق، وكلمة الحق...، وفي الترهيب: عن الغيبة، والنميمة، والكذب، وآفات اللسان الأخرى ". اهـ. (تصنيف الناس بين الظن واليقين: ص٢٠)

إذا استقام اللسان استقامت جوارح الإنسان

فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن خزيمة عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال:" إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تُكفِّر اللسان[1]، فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا ". (صحيح الجامع:٣٥١)

– يقول عليٌّ ﷺ:" اللسان قوام البدن، فإذا استقام استقامت الجوارح وإذا اضطرب اللسان، لم يقم له جارحة ". (الصمت لابن أبي الدنيا: رقم "٥٨"، ص٦٩)

– وعن يونس بن عبيد–رحمه الله– قال:" ما من الناس أحدٌ لسانه منه على بالٍ، إلا رأيتُ صلاح ذلك في سائر عمله ". (الصمت لابن أبي الدنيا: ٦٥٣)

وعنه أيضًا أنه قال:" خصلتان إذا صلحتا من العبد، صلح ما سواهما: صلاته ولسانه ". (سير أعلام النبلاء: ٦/٢٩٣)

١– تُكفِّر اللسان: بمعنى تذِلُّ له وتخضع، أو هو كناية عن تنزيل الأعضاء منزلة الكافر بالنعم، وجاء في بعض الروايات:" فإن الأعضاء تفكر اللسان فتقول: اتق الله فينا...." الحديث

ويقول أيضًا-رحمه الله-:" لا تجد في البر شيئًا واحدًا يتبعه البر كله غير اللسان، فإنك تجد الرجل يكثر الصيام، ويفطر على الحرام، ويقوم الليل، ويشهد بالزور بالنهار" - وذكر يونس أشياء نحو هذا - ولكن لا تجده لا يتكلم إلا بحق، فيخالف ذلك عمله أبدًا ". (سير أعلام النبلاء:٦/٢٩١)

- فاستقامة اللسان من أعظم أركان الاستقامة، لأنها إذا يُسِّرت للإنسان فتحت له أبواب البر، وأغلقت دونه أبواب الفجور، **ولذلك لما أوصى النبي ﷺ سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ فقال له:" قل آمنت بالله ثم استقم، فسأله سفيان: ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: هذا** ". (رواه مسلم)

وفي هذا إشارة واضحة إلى أن زلل اللسان من أعظم القوادح في الاستقامة.

- وعن يحيى بن أبي كثير-رحمه الله- قال:" خصلتان إذا رأيتهما في الرجل، فاعلم أن ما وراءهما خير منهما: إذا كان حاسبًا للسانه، يُحافظ على صلاته ". (الصمت لابن أبي الدنيا: ٥٦٤)

وعنه -رحمه الله- أنه قال:" ما صَحَّ منطق رجلٍ قط، إلا صَحَّ ما وراء ذلك ".

(الزهد لابن أبي عاصم: رقم "٥٦"، ص٣٩)

- وعن الأوزاعي عن يحيى -رحمه الله- قال:" أثنى رجلٌ على رجلٍ، فقال له بعض السلف: وما علمك به؟ قال: رأيته يتحفَّظُ في مَنْطِقه". (الصمت لابن أبي الدنيا: ٤١٨)

وبعد هذه المقدمة وبيان خطورة اللسان، آن لنا الشروع للدخول في الموضوع وبيان فضل الصمت وحفظ اللسان.

أولًا: فضل حـــفـــظ اللســـان

١- حفظ اللسان علامة على الإيمان والإسلام:

- فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:

" مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ".

- وأخرج البخاري أيضًا من حديث عبد الله بن عمرو-رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال:

" المسلمُ مَن سلمَ المسلمونَ من لسانِه ويدِه، والمهاجر[1] مَن هَجَرَ ما نهى اللهُ عنه ".

- وأخرج الطبراني ومحمد بن نصر المروزي في" تعظيم قدر الصلاة" من حديث عبد الله بن عمرو-رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ:" أفضلُ المؤمنينَ إسلامًا من سَلِمَ المسلمونَ من لسانِه ويدِه، وأفضلُ المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهم خُلقًا؛ وأفضلُ المهاجرين من هجر ما نهى اللهُ تعالى عنه، وأفضلُ الجهادِ من جاهد نفسَه في ذاتِ اللهِ عز وجل ". (صحيح الجامع:١١٢٩) (الصحيحة:١٤٩١)

٢- حفظ اللسان ليس فقط من الإسلام، بل هو الإسلام نفسه:

فقد أخرج الإمام أحمد عن عمرو بن عَبَسَة ﷺ قال:" قال رجل: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: أن يُسْلِم قلبك لله عز وجل، وأن يَسْلَم المسلمون من لسانك ويدك...". الحديث

- وأخرج البخاري أيضًا من حديث أبي موسى ﷺ قال:" قالوا: يا رسول الله أي الإسلام أفضل[2]؟ قال:" من سلم المسلمون من لسانه ويده ".

والنبي ﷺ جعل علامة المسلم التي يستدل بها على إسلامه هي سلامة المسلمين من لسانه ويده، والحديث فيه إشارة إلى الحث على حسن معاملة العبد مع ربه، لأنه إذا أحسن معاملة إخوانه، فأولى أن يُحسن معاملة ربه، من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، والمسلمات يدخلن في ذلك، والنبي ﷺ خصَّ اللسان واليد بالذكر؛ لأن اللسان هو المعبر عمَّا في النفس وكذا اليد، لأن أكثر الأفعال بها، ويستثنى من ذلك شرعًا تعاطي الضرب باليد في إقامة الحدود والتعاذير على المستحق لذلك.

وفي التعبير باللسان دون القول نكتة، فيدخل فيه مَن أخرج لسانه على سبيل الاستهزاء، وفي ذكر اليد دون غيرها من الجوارح نكتة، فيدخل فيها من استولى على حق الغير بغير الحق.

١- المهاجر: أي التارك، وحقيقة الهجرة تحصل عن هجر ما نهى الله عنه، قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في "الفتح": "وهذه الهجرة ضربان: ظاهرة وباطنة، فالباطنة: ترك ما تدعو إليه النفس الأمَّارة بالسوء والشيطان، والظاهرة: الفرار بالدين من الفتن". اهـــ.

٢- قوله:" أي الإسلام": فيه حذف تقديره: أي ذوي الإسلام أفضل؟ ويؤيده رواية مسلم: أي المسلمين أفضل؟

٣- حفظ اللسان دليل على سلامة القلب:

وقد مرَّ بنا الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد من حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال:

" لا يستقيم إيمانُ عبدٍ حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل رجل الجنة حتى يأمنْ جارَه بوائقه ". (صححه الألباني في "الأدب المفرد) (السلسلة الصحيحة: رقم: ٢٨٤١)

يقول يحيى بن معاذ –رحمه الله– كما في "حلية الأولياء: ١٠/٦٣":

" القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها، فانظر إلى الرجل حين يتكلم، فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه، حلو وحامض، وعذب وأجاج... وغير ذلك، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه ".

٤- حفظ اللسان سبيل لستر عورة الإنسان:

فقد أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب "الصمت" من حديث ابن عمر–رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله ﷺ:" مَن كفَّ لسانه سَتَرَ اللهُ ﷻ عورتَه، ومَن ملك غَضَبَهُ وقاه الله ﷻ عذابه، ومَن اعتذَرَ إلى الله ﷻ قَبِلَ الله عُذرَهُ ".

٥- حفظ اللسان دليل على فضل صاحبه:

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي موسى ﷺ قال:

" قلت: يا رسول الله، أي المسلمين أفضل؟[١] قال: مَن سَلِمَ [٢] المسلمون من لسانه ويده ".

قال الخطابي–رحمه الله–:" المراد بأفضل المسلمين" أي من جمع إلى أداء حقوقه تعالى حقوق المسلمين ". اهـــ.

٦- حفظ اللسان إلا من طيب الكلام: من أفضل الأعمال:

فقد أخرج الطبراني عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال:" سألتُ رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة على ميقاتها، قلت: ثم ماذا يا رسول الله؟ قال: أن يسلمَ المسلمون من لسانك ". (صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب)

– وأخرج الإمام أحمد والطبراني من حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال:" بينما أنا عند رسولِ اللهِ ﷺ إذا جاءه رجلٌ فقال: يا رسولَ اللهِ! أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قال:" إيمانٌ باللهِ، وجهادٌ في سبيلِه، وحجٌّ مبرورٌ، فلمَّا

١- أفضل: أي أكثر درجة عند الله ﷻ.

٢- سلم: نجا.

ولَّى الرَّجلُ؛ قال:" وأهونُ عليك من ذلك إطعامُ الطَّعامِ، ولينُ الكلامِ، وحُسْنُ الخلقِ". فلمَّا ولَّى الرَّجلُ، قال:" وأهوَنُ عليك من ذلك؛ لا تتَّهمِ اللهَ على شيءٍ قضاه عليك ". (صحيح الترغيب والترهيب:١٣٠٧)

٧- حفظ اللسان إلا من طيب الكلام: صدقة:

- فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال:

" على كل مسلم صدقة، قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال: يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق، قيل: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يُعِين ذا الحاجة الملهوف، قيل: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يأمر بالمعروف أو الخير، قيل: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: يمسك عن الشر فإنها صدقةٌ ".

- وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" كل سُلَامَى من الناس عليه صدقةٌ، كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين اثنين صدقةٌ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له متاعه صدقةً، والكلمة الطيبة صدقةٌ، وبكل خطوةٍ تمشيها إلى الصلاة صدقةٌ، وتميط الأذى عن الطريق صدقةٌ ".

- وأخرج الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ:

" ابنُ آدمَ ستُّون وثلاثمائةِ مِفصَلٍ، على كلِّ واحدٍ منهما في كلِّ يومٍ صدقةٌ، فالكلمةُ الطيِّبةُ يتكلم بها الرجلُ صدقةٌ، وعَونُ الرجلِ أخاه على الشيءِ صدقةٌ، والشربَةُ من الماءِ يسقيها صدقةٌ، وإماطةُ الأذى عن الطريقِ صدقةٌ ". (صحيح الجامع:٤٢)

٨- حفظ اللسان إلا من طيب الكلام: موجب للمغفرة:

أخرج الطبراني في الكبير من حديث هانئ بن يزيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

" إنَّ موجبات المغفرةِ: بذلَ السَّلامِ، وحسن الكلام ". (صحيح الجامع:٢٢٣٢)

٩- حفظ اللسان إلا من طيب الكلام: سبب للفوز برضوان الله:

فقد أخرج الإمام مالك في "الموطأ" والترمذي عَنْ أَبِي عَبْدِالرَّحمنِ بلال بن الحارثِ الْمُزنِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قالَ:" إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوانِ اللَّهِ تَعالى مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بلَغَتْ يكْتُبُ اللَّه لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِنْ سَخَطِ اللَّه مَا كَانَ يظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بلَغَتْ يكْتُبُ اللَّه لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يلْقَاهُ ".

١٠- حفظ اللسان إلا من طيب الكلام: رفع في الدرجات:

فقد أخرج البخاري ومسلم منْ حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:" إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالى مَا يُلقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّه بِهَا دَرَجاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعالى لا يُلْقي لَهَا بَالًا يهوي بِهَا في جَهَنَّم ".

١١- حفظ اللسان إلا من طيب الكلام: سبيل للنجاة من النار:

فقد أخرج البخاري ومسلم منْ حديث عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ".

وَزَادَ فِي رواية:" وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ".

- وعند مسلم بلفظ:" عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ ذَكَرَ النَّارَ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا، وَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ ثَلَاثَ مِرَارٍ، ثُمَّ قَالَ: " اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا، فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ".

وأخرج الدارقطني عن البراء بن عازب ﷺ قال: "جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: دلني على عمل يقربني من الجَنَّة، ويباعدني من النار، قال: لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، اعْتِق نسمة، وفُك رقبة، قال: يا رسول الله، أو ليسا واحدًا؟ قال: لا. عتق النسمة أو تُفْرِدَ بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها، والمِنْحةُ الوكوف[١]، والفيء [٢] على ذي الرحم الظالم، فإن لم تطقْ ذلك، فكف لسانك إلا من خير".

١٢- حفظ اللسان إلا من طيب الكلام: سبيل لدخول الجَنَّة:

فقد أخرج الطبراني في "الأوسط والصغير" من حديث ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

" طوبى[٣] لَمن مَلكَ لسانه، ووسِعَهُ بيتُه، وبكى على خطيئته ". (صحيح الجامع:٣٩٢٩)

- وأخرج ابن حبان عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

" أَطِب الكلام، وأَفْشِ السلام، وصِلْ الأرحام، وصَلِّ بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام ".

(الصحيحة:٥٦٩) (صحيح الجامع: ١٠١٩)

١- الوكوف: الغزيرة اللبن، وقيل: التي لا ينقطع لبنها سنتها جميعها.

٢- الفيء: الظل.

٣- طوبى: شجرة في الجنة، يملك ظلها الذي حفظ لسانه من الفحش والبذاءة.

– وأخرج الإمام أحمد وابن حبان عن أبي مالك الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ:

" إنَّ في الجَنَّة غُرفًا يُرَى ظاهرُها من باطنِها، وباطنُها من ظاهرِها، أعدَّها الله تعالى لَمن أطعم الطعام، وألانَ الكلامَ، وتابعَ الصِّيام، وصَلَّى باللَيلِ، والناسُ نيامٌ ". (صحيح الجامع: ٢١٢٣)

– وأخرج الطبراني والحاكم من حديث المقدام بن شريح عن أبيه عن جده قال:" قلت: يا رسول الله! حدثني بشيء يوجب لي الجنة؟ فقال:" موجب الجنة: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، وحسن الكلام ". (صححه الألباني)

– وأخرج الإمام أحمد وابن حبان عن البراء بن عازب ﷺ قال:" جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله!، علِّمني عملًا يُدخِلني الجَنَّة، فقال له النبي ﷺ: إن كنتَ أقْصرت الخُطبة[١] لقد أعرضتَ المسألة[٢]، أعْتِق النَّسَمَة[٣]، وفُكَّ الرَّقبة[٤]، فإن لم تُطِقْ ذلك، فأطعم الجائع، واسْقِ الظمْآن، وأْمُر بالمعروف، وانْهَ عن المنكر، فإن لم تُطِقْ ذلك، فَكُفَّ لسانك إلا عن الخير".

(صححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب وفي المشكاة:٣٣٨٤) (وصححه الأرناؤوط كذلك في "تحقيق الإحسان":٢/٩٨)

– وأخرج البخاري من حديث سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" مَن يضمن[٥] لي ما بين لَحْيَيْه[٦] وما بين فخذيه، وفي رواية:وما بين رجليه[٧]، أضمنُ له الجَنَّة ".

– وفي رواية عند الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

١- أقْصرت الخُطبة: أي إن كنتَ أفصحت عن غرضك باختصار، وبلاغة تعبير، وحسن بيان.

٢- أعرضتَ المسألة: أي أجدت في إظهار طلبك، وأحسنت بيانًا.

٣- النَّسَمَة: النَّفس والروح، أي أعتق ذا روح، وكل دابة فيها روح فهي نسمة، وإنما يريد النفس، ومنه حديث علي: "والذي خلق الجنة، وبرأ النَّسَمَة" أي خلق ذات الروح

٤- فُكَّ الرَّقبة: أي أطْلِقْهَا من الأسر، وأَزِلْ عنها أغلال حبسها، وأعْطِها الحرية ونعمة الحياة الكريمة.

٥- يضمن: من الضمان بمعنى "الوفاء"، بترك المعصية، فأطلق الضمان وأراد لازمه، وهو أداء الحق الذي عليه، فالمعنى من أدى الحق الذي على لسانه من النطق بما يجب عليه، أو الصمت عمَّا لا يعنيه، وأدى الحق الذي على فرجه من وضعه في الحلال وكفه عن الحرام.

وقال الداووي: "المراد مما بين اللحيين: الفم، فيتناول الأقوال والطعام والشراب، وسائر ما يتأتى من الفم من الفعل، ومَن تحفظ من ذلك أمِنَ من الشر كله؛ لأنه لم يبق إلا السمع والبصر. اهـ من كلام الداووي، لكن خفي عليه أنه بقي البطش باليدين، وإنما يحمل الحديث على أن النطق باللسان أصل في حصول كل مطلوب، فإذا لم ينطق إلا في خير سلم، وقال ابن بطال: "دلّ الحديث على أن أعظم البلاء على المرء في الدين: لسانه وفرجه، فمَن وقي شرهما؛ وقي أعظم الشر". اهـ

٦- لَحييه: بفتح اللام وسكون المهملة والتثنية، واللحيان: هما العظمان في جانبي الفم اللذان تنبت عليهما الأسنان (عظما الحنك)، والمراد: بما بينهما، يعني اللسان.

٧- ما بين فخذيه أو ما بين رجليه: يعني الفرْج.

" مَن وقاه الله تعالى شَرَّ ما بين لحييه، وشَرَّ ما بين رجليه دخل الجنة ". (الصحيحة:٥١٠)

– وأخرج الإمام أحمد والطبراني عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:
" مَن حفظ ما بين فَقْمَيْهِ[1] وفخذيه؛ دخل الجنة " (قال الحافظ في "الفتح:١١/٣١٦": إسناده جيد)

– وأخرج الإمام أحمد والطبراني وأبو يعلى عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:"ألا أحدثك بثنتين مَن فعلهما دخل الجنة؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: يحفظ الرجل ما بين فَقْمَيْهِ، وما بين رجليه ".

يقول صالح بن جناح:

أقلل كلامك واستعذ من شَرِّه إن البلاء ببعضه مقرون
واحفظ لسانك من غِبِّه حتى يكون كأنه مسجون
وكِّل فؤادك باللسان وقل له إن الكلام عليكما موزون

ثانيًا: فضل الصمت

لابد أن نعلم أن خطر اللسان عظيم، ولا نجاة من خطره إلا بالصمت، فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه، فقد أخرج الترمذي والإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو–رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله ﷺ:" مَن صمَتَ نجا ". (الصحيحة:٥٣٦) (صحيح الجامع:٦٣٦٧)

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:
" مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت ".

وأخرج الطبراني في "الكبير"عن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" إنك لم تَزَلْ سالمًا ما سَكَتَّ، فإذا تكلَّمْتَ كُتِبَ لك أو عليك ". (صحيح الترغيب والترهيب:٢٨٦٦)
وأخرج الإمام أحمد عن جابر بن سمرة ﷺ قال:" كان رسول الله ﷺ طويلَ الصمت، قليلَ الضحك ". (صحيح الجامع:٤٨٢٢)
ووصف هند بنُ أبي هالة ﷺ منطِقَ رسول الله ﷺ للحسن بن علي–رضي الله عنهما– فقال:

١– ما بين فَقْمَيْهِ: يعني اللسان. والفقمان: بفتح الفاء وسكون القاف: هما اللَّحيان.

"... كان طويلَ السكوت، لا يتكلَّم في غير حاجة، يفتتح الكلامَ ويختمه باسم الله تعالى، ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فَصْل، لا فضولَ ولا تقصير". (مختصر الشمائل للترمذي: ص ٢٠)

وسأل الحسين بن علي –رضي الله عنهما– أباه عن مخرجه ﷺ كيف كان يصنع فيه؟ فقال ﷺ:

" كان رسول الله ﷺ يَخْزِن [١] لسانه إلا فيما يعنيه...". (مختصر الشمائل المحمدية: ص ٢٣)

– **وقال أيضًا:**" كان ﷺ لا يذم أحدًا، ولا يَعيبه، ولا يطلب عورته[٢]، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه ".

(مختصر الشمائل المحمدية: ص ٢٥)

طول الصمت من أفضل ما يتجمَّل به الخلق:

فقد أخرج أبو يعلى والبزار عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" لقي رسولُ الله ﷺ أبا ذرّ فقال:

" يا أبا ذرٍّ! ألا أدُلُّك على خصلتين هما أخفُّ على الظَّهر، وأثقلُ في الميزانِ من غيرِهما؛ قال: بلى يا رسولَ اللهِ، قال:" عليك بحُسْنِ الخُلُقِ، وطولِ الصَّمتِ، فوالَّذي نفسي بيدِه ما تجمَّل الخلائقُ بمثلِهما ".

وصدق القائل حيث قال:

يموت الفتي من عثرةٍ بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرِّجْلِ

فعثرته بالفمِّ ترمـــي برأسه ... وعـــثرته بالرِّجْلِ تبرأ على مهلِ

الآثـــار [٣]:

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ:

" مَنْ كثُر كلامهُ كثر سَقَطُه[٤]، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثُرت ذنوبه كانت النار أولى به ".

(الصمت لابن أبي الدنيا: ٢٤١)، (جامع العلوم والحكم: ص ١٦١)

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ:

" والذي لا إله إلا هو، ما على وجه الأرض من شيء أحوج إلى طولِ سَجْنٍ مِن لسانٍ"

(أخرجه الإمام أحمد في "الزهد" والطبراني)

وصدق القائل حيث قال:

تَحَفَّظْ من لسانك ليس شيء ... أحقَّ بطول سجن من لسان

وقال أبو الدرداء ﷺ:

١- يَخْزِن: يحبس.

٢- لا يطلب عورته: أي لا يطلب عورة أحد، وهي ما يُستَحْيا منه إذا ظهر، والمعنى: لا يُظهر ما يريد الشخصُ ستره، ويخفيه عن الناس.

٣- "بصائر في الفتن" لمحمد بن إسماعيل المقدم – حفظه الله–.

٤- سقطُه: الخطأ في القول والفعل.

" أنصف أُذنيك من فيك، فإنما جعلت لك أُذنان وفم واحد لتسمع أكثر مما تتكلم ".

ويقول أنس ﷺ:" لا يتقي الله ﷻ رجلٌ أو أحدٌ حق تقاته حتى يَخْزَن من لسانه ". (ابن ماجه في المقدمة) (حسن السمت في الصمت:٥٣)

ويقول أنس ﷺ أيضًا:" مَن خزن لسانه ستر الله عورته، ومَن كفَّ غضبه كفَّ الله عنه عذابه، ومَن اعتذر إلى الله قبل الله عُذره ". (رواه البيهقي)

وكان عليّ بن أبي طالب ﷺ يقول:" إذا تم العقل نقص الكلام ".

ويقول عمرو بن العاص ﷺ:" الكلام كالدواء، إن أقللتَ منه نفع، وإن أكثرت منه قتل ".

يقول حسان بن ثابت ﷺ:" كان شداد بن أوس في سفر، فنزل منزلًا، فقال لغلامه: ائتنا بالسُّفْرَة نعبثُ بها، فأنكرتُ عليه، فقال: ما تكلَّمتُ بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطِمُها وأزمها إلا كلمتي هذه فلا تحفظوها عليّ ".

وعن أبي الذيَّال –رحمه الله– قال:" تعلَّم الصمتَ كما تتعلمُ الكلامَ، فإن يكن الكلامُ يهديك؛ فإن الصمت يقيك، ولك في الصمت خَصلتان: تأخذ به عِلْمَ مَن هو أعلمُ منك، وتدفع به عنك مَن هو أجدلُ منك ". (جامع بيان العلم:١/٥٥)

وعن مروان بن محمد قال: "قيل لإبراهيم بن أدهم–رحمه الله–:
" إن فلانًا يتعلَّم النحو، فقال: هو إلى أن يتعلم الصمت أحوجُ ". (حلية الأولياء:٨/١٦).

وقال إبراهيم بن الأشعث –رحمه الله–: "سمعت الفضيل يقول:
" مَن استوحشَ مِن الوَحْدة، واستأنس بالناس، لم يسلم من الرياء، ولا حجَّ ولا جهادَ أشدُّ من حبس اللسان، وليس أحدٌ أشدَّ غَمًّا ممن لم يحبس لسانه ". (سير أعلام النبلاء: ٨/٤٣٦)

وقال الفضيل–رحمه الله–:" كان بعض أصحابنا يحفظ كلامه من الجمعة إلى الجمعة ".
(الصمت لابن أبي الدنيا: ٧٤٢)
وقال الفضيل أيضًا:" خصلتان تُقَسِّيان القلب: كثرةُ الكلام، وكثرةُ الأكل". (سير أعلام النبلاء: ٨/٤٤٠)

وكان عمر بن عبد العزيز–رحمه الله– يقول:" التَّقِي ملجم ".

وقال أبو عبيد –رحمه الله–: "ما رأيت رجلًا قط أشدَّ تحفُّظًا في منطقِهِ من عمر بن عبد العزيز".

وقال إبراهيم بن أدهم –رحمه الله–:
" إذا اغتممت بالسكوت، فتذكر سلامتك من زلل اللسان ". (حلية الأولياء: ٨/٢٠).

يقول ابن السكيت–رحمه الله–:

يموت الفتى من عثرةٍ بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرِّجْلِ
فعثرته بالقولِ تذهب برأسه ... وعثرته بالرِّجْـــلِ تبرى على مهل

وقيل عن الإمام القدوة ابن دقيق العيد، محمد بن عليّ بن وهب–رحمه الله–:
" كان حافظًا للسانه، مُقبلًا على شانه، وقَفَ نفسه على المعالي وقصدها، ولو شاء العادُّ أن يحصر كلماته لحصرها، يقول ابن دقيق عن نفسه: "ما تكلمت كلمة، ولا فعلت فِعْلًا إلا وأعددتُ له جوابًا بين يدي الله ﷻ ". (طبقات الشافعية:٩/٢١٢)

وعن الحسن بن حُيِيّ –رحمه الله– قال:" إني لأعرف رجلًا يَعُدُّ كلامه، وكانوا يرون أنه هو".
(الصمت لابن أبي الدنيا: رقم٦٣٩)
ويقول الحسن أيضًا –رحمه الله–:" ما عقل دينه مَن لم يحفظ لسانه ". (الإحياء:٣/١٢٠)

وقال بشر بن منصور–رحمه الله–:" كنا عند أيوب السختياني فلغطنا، وتكلَّمنا، فقال لنا: كُفُّوا... لو أردت أن أخبركم بكل شيء تكلَّمتُ به اليوم لفعلت ". (حلية الأولياء:٣/٨)

يروي عبد المنعم بن إدريس عن أبيه–رحمه الله– أنه قال:
" كان وهب بن منبّه يحفظ كلامه كل يوم، فإن سلم أفطر، وإلا طوى ". (السير:٤/٥٤٧)

وها هو عبد الله بن عون أرطبان–رحمه الله– عالم البصرة يقول عنه خارجة بن مصعب:

" صحبت ابن عون أربعًا وعشرين سنة، فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة، وقال سلام بن أبي مطيع: "كان ابن عون أملكهم للسانه ".

وقال خارجة بن مصعب أيضًا:" صَحِبتُ ابن عون ثِنْتي عشرة سنة، فما رأيتُه تكلَّم بكلمة[1] كتبها عليه الكرام الكاتبون ". (الصمت لابن أبي الدنيا: رقم٧٤٢)

ويقول الربيع بن خثيم –رحمه الله–:" لا خير في الكلام إلا في تسع: تهليل، وتكبير، وتسبيح، وتحميد، وسؤالك عن الخير، وتعوُّذك من الشر، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، وقراءتك القرآن ".

(الصمت لابن أبي الدنيا:٢٤٦)

ويقول أبو حيَّان التيمي –رحمه الله– عن أبيه قال:

" ما سمعت الربيع بن خثيم يذكر شيئًا من أمر الدنيا قط ".

وقال رياح القيسي –رحمه الله–: قال لي عتبة الغلام:

" يا رياح، إن كنتُ كلما دعتني نفسي إلى الكلام تكلمتُ، فبئس الناظرُ لها أنا، يا رياح، إن لي موقفًا يُغتبط فيه بطول الصمت عن الفضول ". (صفة الصفوة: ٣٧٢/٣)

وعن الصلت بن بَسْطام التيمي–رحمه الله– قال: قال لي أبي:

" الزم عبد الملك بن أبْجر، فتعلَّم من توقِّيه في الكلام، فما أعلم بالكوفة أشدَّ تحفُّظًا للسانه منه ".

(الصمت لابن أبي الدنيا: ٦٣٩)

ويقول عبد الله بن طاووس –رحمه الله–:" كان طاووس –رحمه الله– يتعذَّر طول السكوت، ويقول: "إني جربت لساني فوجدته لئيمًا راضِعًا[2] ". (الصمت لابن أبي الدنيا:٢٤٨)

١– تكلَّم بكلمة: أي بكلمة سوء.

٢– راضعًا: قال ابن الأعرابي –رحمه الله–: الراضِع والرضيع: الخسيس من الأعراب، الذي إذا نزل به الضيق رضعَ بفيه (بفمه) شاته، لئلا يسمَعه الضيف فيطلب اللبن.

يقول أحدهم:

مَن لزم الصمت اكتسى هيبةً ... تخفي على الناس مساويه[1]

لســـان مَن يعقل في قلبه ... وقلب مَن يجهل في فيه

(حسن السمت في الصمت للسيوطي:٢٠)

وقال طاووس –رحمه الله–:" لساني سَبُع، إن أرسلتُه أكلني ". (الإحياء: ١٢٠/٣)

وكذا قال بكر بن عبد الله المزني–رحمه الله– لما سُئل:

" إنك تطيل الصمت؟ فقال: إن لساني سبع إن تركته أكلني ".

وعن شيخ من قريش قال: قيل لبعض العلماء:

" إنك تُطيل الصمتَ، فقال: إني رأيتُ لساني سَبُعًا عَقورًا، أخافُ أن أخَلِّيَ عنه فَيَعْقِرني ".

(الصمت: ص ٣٠٠ رقم٦٩٩)

وقد قيل:

إن اللسان إذا حللت عِقَالَهُ ... ألقاكَ في شنعاءَ ليس تُقال

وقال بعضهم:

احفظ لســـانك أيها الإنسان ... لا يَـــدْغَـــنَّك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهابُ لقاءه الشجعان

وعن يزيد بن أبي حبيب–رحمه الله– قال:" إن المتكلم لينتظر الفتنة، وإن المُنْصِتَ لينتظر الرحمة ".

(جامع بيان العلم وفضله:٥٤٩/١)

ويقول وهب بن منبه –رحمه الله– في "حكمة آل داود":

"حقٌّ على العاقل أن يكون عارفًا بزمانه، حافظا للسانه، مقبلًا على شانه". (إحياء علوم الدين:١٢٠/٣)

تَحَفَّظْ من لسانك ليس شيء ... أحقَّ بطول سجن من لسان

يقول الحسن بن هاني–رحمه الله–:

إنـــما العـــاقل مَن ... أجَمَ فاه بلجـــام

لُذْ[2]بداء الصمت خير ... لك من داء الكلام

(الآداب الشرعية: ص٨٣)

١– مساويه: عيوبه.

-٢ لُذْ: الجأ.

وقد قيل: "ما نَدِمَ حليمٌ ولا ساكت".

قال وهيب بن الورد –رحمه الله–:
" بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت، والعاشر في عزلة الناس ".

وعن سفيان –رحمه الله– قال:" طول الصمت مِفتاحُ العبادة ".

وعن محمد بن النضر الحارثي–رحمه الله– قال: كان يُقال:" كثرة الكلام تُذْهِبُ الوقَار".
(الصمت لابن أبي الدنيا: ص ٦٨ رقم ٥٢).
قال الأصمعي –رحمه الله–: " قال أعرابي:" السكوت صيانة للسان وستر للعيّ"

وقال الأعرابي أيضًا:" الكلمة أسيرة في وثاق الرجل، فإذا تكلم بها كان أسيرًا في وثاقها ".

وصدق القائل حيث قال:

سأرفض ما يخاف عليَّ منه ... وأتركُ ما هويتُ لما خشيتُ
لسانُ المرءِ يُنْبي عن حِجَاه ... ويمرُّ المرء يستره السكـــون

وقال ابن القيم –رحمه الله–:
" والكلام أسيرك، فإذا خرج من فيكَ صِرْتَ أنت أسيرَه، واللهُ عندَ لسانِ كلِّ قائلٍ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٨). (الجواب الكافي: ص ٢٨١)

وقال بعضهم:" رأيت مالكًا صامتًا لا يتكلم، ولا يتلفت يمينًا ولا شمالًا، إلا أن يكلمه إنسان فيسمع منه، ثم يجيبه بشيء يسير، فقيل له في ذلك، فقال: وهل يكبُّ الناس في جهنم إلا هذا؟ وأشار إلى لسانه ".
(ترتيب المدارك:١/١٧٠).

ويقول أكثم بن صيفي:" مقتل الرجل بين فكيه[1]". **وكان يقول أيضًا:**" الصمت يكسب أهله المحبة ".

وقال بعضهم:" الصمت يجمع للرجل فضيلتين: السلامة في دينه، والفهم عن صاحبه ".
(الإحياء:٣/١١١)

١- يعني: لسانه، والفكان: اللحيان.

يقول جارٌ لضيغم بن مالك:" ما سمعت أبا مالك يذكر من الشِّعْر إلا بيتًا واحدًا:

قد يَخْزن الوَرِعُ التقيّ لسانَهُ حذَرَ الكلام وإنه لَمُفَوَّهُ

(الصمت لابن أبي الدنيا: ص ٢٢٠)

يقول مالك بن دينار–رحمه الله–:" لو كُلِّف الناسُ الصحف؛ لأقلّوا المنطق ".

يقول عمر بن عبد العزيز –رحمه الله–:

" إذا رأيتم الرجل يُطيل الصمت ويهرب من الناس، فاقتربوا منه، فإنه يُلَقَّن الحكمة ".

وقيل لداود المديني:" لِمَ لا تتكَلَّم: فسكت طويلًا، ثم رفع رأسه، كأنه غائب، فقيل: ألا تتكلم؟ قال: أنتظرُ رسولَ ربِّ العالمين، وأنا مفكِّر في الجواب، فالذي يكون مشغولًا بذلك كيف يقدر أن يتكلم؟!".

وعن لقمان الحكيم أنه قال لابنه:

" يا بني، مَن يصحب صاحب السوء لم يسلم، ومن يدخل السوء يُتَّهَم، ومَن لم يملك لسانه يندم".

وصدق القائل حيث قال:

العلم زينٌ والسكـــوت سلامة فإذا نطقت فلا تكن مكثارا

ما إن ندمت على سكوتي مرةً فلقد ندمتُ على الكلام مرارا

وعن أبي بكر بن عياش قال:

" أدنى نفعِ السكوتِ السلامةُ، وكفى به عافية، وأدنى ضررِ المنطقِ الشهرةُ، وكفى بها بلية ".

(سير أعلام النبلاء: ٨/٥٠١).

يقول الشافعي –رحمه الله–:

وجـــدتُ سكـــوتي متجرًا فَلَزِمتُه إذا لم أَجِدْ ربحًا فلستُ بخاسر

وما الصمت إلا في الرجال متاجر وتاجره يعلو على كل تاجر

وقال أيضًا–رحمه الله–:

قالوا سكتَّ وقد خوصمتَ قلتُ لهم إن الجوابَ لبابِ الشرِّ مفتاحُ

وقال مرة رجل:" ما أشدَّ البرد اليوم"، فالتفت إليه المعافى بن عمران، وقال: "استدفأت الآن؟!، لو سكتَّ لكان خيرًا لك ". (سير أعلام النبلاء: ٩/٢٨٤)

وقال أبو بكر بن محمد بن القاسم–رحمه الله–:

" كان شيخنا أبو إسحاق الشيرازي إذا أخطأ أحد بين يديه، قال:" أيُّ سكتةٍ فاتتك؟ ".

(سير أعلام النبلاء: ١٨/٤٥٥)

وعن إبراهيم –رحمه الله– قال:" كانوا يجلسون، فأطولهم سكوتًا أفضلهم في أنفسهم ". (الحلية:٤/٢٢٤)

وعن محارب قال:" صحبنا القاسم بن عبد الرحمن فغلبنا بثلاث: بكثرة الصلاة، وطول الصمت، وسخاء النفس ". (الزهد لابن أبي عاصم: ص ٤٦).

وقيل لرجل:" بم سادكم الأحنف، فوالله ما كان بأكبركم سنًّا، ولا بأكثركم مالًا؟! فقال: بقوة سلطانه على لسانه ".

وحضر ابن المبارك يومًا عند الثوري–رحمه الله–فلم يتكلم بحرف حتى قام، فلما قام، قال الثوري لأصحابه: "وددت أني أقدر أن أكون مثله ". (مقدمة الجرح والتعديل: ص ٢٦).

وقال عبد الله بن أبي زكريا–رحمه الله–:" عالجتُ الصمتَ ثنتي عشرةَ سنةً، فما بلغت منه ما كنت أرجو".

(الصمت لابن أبي الدنيا: ص ٣٠٣).

وعن مالك عن سعيد بن أبي هند–رحمه الله– قال:" وجدت الصمت أشدَّ من الكلام ".

(الزهد لابن أبي عاصم: ص ٣٠ رقم ٣٦)

وعن أرطاة بن المنذر–رحمه الله– قال:" تعلَّم رجل الصمتَ أربعين سنة، بِحَصَاةٍ يضعها في فيه، لا يترِعها إلا عند طعام، أو شراب، أو نوم ". (الصمت لابن أبي الدنيا: ص ٤٣٥).

قال الإمام مُوَرِّقٌ العِجْلِيُّ:" تعلمت الصمت في عشر سنين، وما قلتُ شيئًا قَطُّ إذا غضبت أندمُ عليه إذا زال غضبي ". (سير أعلام النبلاء:٤/٣٥٤).

ويروى أن قيس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا، فقال أحدهما لصاحبه:

" كم وجدت في ابن آدم من العيوب، فقال: هي أكثرُ من أن تُحْصَى، والذي أحصيته ثمانية آلاف عيبٍ، ووجدتُ خصلة إن استعملتها سترتَ العيوبَ كلها، قال: ما هي؟ قال: حفظ اللسان ".

(الأذكار للإمام النووي –رحمه الله–)

قال مالك بن دينار–رحمه الله–:"كان الأبرار يتواصون بثلاث، بسجن اللسان، وكثرة الاستغفار، والعزلة"
(الحلية:٢/٣٧٧)

قال بعض الحكماء:" في الصمت الخير الكثير، وقد اجتمع هذا الخير في سبع كلمات:
أولها: أن الصمت عبادة من غير عناء.
والثانية: زينة من غير حلي.
والثالثة: هيبة من غير سلطان.
والرابعة: حصن من غير حائط.
والخامسة: الاستغناء عن الاعتذار إلى أحد.
والسادسة: راحة الكرام الكاتبين.
والسابعة: ستر لعيوبه، كما قيل: "الصمت زين للعالم، وستر للجاهل ".

وقال بعض الحكماء أيضًا:" مَن نطق في غير خير فقد لغا، ومَن نظر في غير اعتبار فقد سها، ومَن سكت في غير فكر فقد لها ".

وصايا الرسول في حفظ اللسان والحث عليه، وبيان ثواب وأجر من قام بذلك.

١–أخرج الطبراني والبيهقي بإسناد صحيح من حديث أَسْوَدَ بن أَصْرَمَ المحاربي ﷺ قال:" قلت: يا رسول الله! أوصني، قال: أتملك يدك؟ قلت: فما أملك إذا لم أملك يدي، قال: أتملك لسانك؟ قال: فما أملك إذا لم أملك لساني، قال: فلاَ تبْسُط يَدَكْ إلاَّ إلى خير، ولا تَقُلْ بلسانك إلاَّ معروفًا ".
(صحيح الترغيب والترهيب:٢٨٦٧)
لأن كل كلام سيكون عليك إلا فيما بيَّنه النبي ﷺ.
فقد أخرج ابن ماجه من حديث أم حبيبة–رضي الله عنها– قالت: قال رسول الله ﷺ:
" كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو ذكر الله ﷻ ".
(قال الألباني في ضعيف الجامع: "ضعيف")
٢– أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب "الصمت" من حديث معاذ ﷺ أنه قال:
" يا رسول الله، أوصني، قال: اعبُد الله كأنك تراه، واعْدُدْ نفسك في الموتى، وإن شئْتَ أنْبَأتُك بما هو أمْلَك بك من هذا كله، قال: "هذا"، وأشار بيده إلى لسانه ".
(صحيح الترغيب والترهيب: ٢٨٧٠) (قال المنذري: "إسناده جيد")
٣– وأخرج الطبراني في الكبير عن الحارث بن هشام ﷺ أنه قال لرسول الله ﷺ:

" أخبرني بأمرٍ أعتصم به، فقال رسول الله ﷺ امْلكْ عليك هذا، وأشار إلى لسانه ".

(صحيح الترغيب والترهيب:٢٨٦٤)

٤- وأخرج الترمذي من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ قال:

" يا رسولَ اللهِ!، حدِّثْني بأمرٍ أعتصِمُ به قال رسولُ اللهِ ﷺ: " قُلْ: ربِّيَ اللهُ ثمَّ استقِمْ "، قال: قلت يا رسولَ اللهِ ما أكثَرُ ما تخافُ عليَّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: هذا ".

٥- وأخرج الخرائطي في "مكارم الأخلاق" أن النبي ﷺ قال لمعاذ ﷺ:" احفظ لسانك ثَكَلَتْك أُمُّك معاذ! وهل يَكُبُّ الناسَ على وجوههم إلا ألسنتهم ". (صحيح الجامع:٢٠٥)

٦- وأخرج ابن عساكر عن مالك بن يُخامر ﷺ أن النبي ﷺ قال:" احفظ لسانك ". (صحيح الجامع:٢٠٤)

ومعنى حفظ اللسان فيبيِّنه ابن القيم-رحمه الله- كما في كتابه "الداء والدواء" (ص١٤١) فيقول:

" وأمَّا اللفظات فحفظها بأن لا يخرج لفظةً ضائعةً، بل لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه، فإذا أراد أن يتكلَّم بالكلمة نظر: هل فيها ربحٌ وفائدةٌ أم لا؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسكَ عنها، وإن كان فيها ربح نظر: هل تفوته بها كلمة هي أربح منها فلا يضيعها بهذه ". اهـــ.

٧- وأخرج الإمام أحمد والطبراني والحاكم من حديث أبي ذر ﷺ قال:

" قلت: يا رسول الله، أوصني، قال: أوصيك بتقوى الله فإنها زيْنٌ لأمرك كله، قال: قلت: يا رسول الله زدني، قال: عليك بتلاوة القرآن، وذكر الله ﷻ، فإنه ذكر لك في السماء، ونور لك في الأرض، قلت: يا رسول الله، زدني، قال: عليك بطول الصمت، فإنه مطردة للشيطان، وعون لكَ على أمر دينك، قلت: يا رسول الله زدني، قال: إياك وكثرة الضحك، فإنه يميت القلب، ويذهب بنور الوجه، قلت: يا رسول الله زدني، قال: قل الحق وإن كان مرًّا، قلت: يا رسول الله زدني، قال: لا تخف في الله لومةَ لائم، قلت: يا رسول الله زدني، قال: ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك[1]".

(قال الحاكم: "صحيح الإسناد، ولكن ضعفه بعض أهل العلم")

٨- أخرج البزار والطبراني في "الأوسط" وأبو يعلى والبيهقي في "شعب الإيمان" من حديث أنس ﷺ أنه قال:" لقي رسول الله ﷺ أبا ذر، فقال: يا أبا ذر، ألا أدلك على خصلتين: هما خفيفتان على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما ".

١- ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك: أي ليمنعك عن غيبة الناس وأذاهم الذي تعلمه من تقصيرك في حق نفسك، وأنك في حاجة إلى إصلاح النفس، فانشغل بهذا عن ذكر الناس.

٩- ورواه أبو الشيخ عن أبي ذر ﷺ بلفظ:" عليك بحُسْن الخلق، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما تجمل الخلائق بمثلهما ". (صحيح الجامع:٤٠٤٨)

١٠- أخرج الترمذي من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ:
" لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوةٌ للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي ". (ضعف بعض أهل العلم هذا الحديث، وحسَّنه عبد القادر الأرناؤوط -رحمه الله-)

١١- وأخرج الإمام أحمد والترمذي عن عقبة بن عامر ﷺ قال:
" قلت: يا رسول الله: "ما النجاة[١]؟ قال: أمسكْ عليك لسانك، ولْيَسَعْكَ بيتُك، وابْكِ على خطيئتك ".
(السلسلة الصحيحة: ٨٩٠) (صحيح الجامع:١٣٩٢)

١٢- وأخرج الإمام أحمد وابن ماجه عن أبي أيوب ﷺ قال:" جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، عظني وأوجز، قال: إذا قمت إلى صلاتك، فصلِّ صلاة مودِّع، ولا تكلم بكلام تعتذر منه غدًا، واجمع اليأس مما في أيدي الناس ". (السلسة الصحيحة:٤٠١)

١٣- عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" إياك وكل ما يعتذر منه ".
(حسنه الألباني في الصحيحة: ٣٥٤، وعزاه إلى الضياء في المختارة)

وجوب حفظ اللسان في زمن الفتن[٢]

مرَّ بنا فيما سبق أنه يجب على كل مُكلَّف أن يكفَّ لسانه ويحفظه عن كل باطل، وفى جميع الأوقات والأحوال، بيد أنه يتأكد من الحفظ وقت الفتنة، وحلول المحنة؛ ففيها تكثر الأقاويل، وتزداد شهوة الإشاعات والمبالغات والأباطيل، وعندها تكون الآذان مستعدة لاستقبال كل ما يُقَال، وفي هذا تكمن الخطورة، فرُبَّ كلمة أشدُّ من وقع السيف أيام الفتنة.

فلذا؛ يجب على المسلمين قاطبة أن يكفوا ألسنتهم عن كل كلمة تزيد من وَهَج الفتنة.
(البصائر في الفتن للمقدم - حفظه الله - ص٦٢)

وقد يحسب المغرور أنه إذا كفَّ يده فقد اعتزل الفتن، ولا يدري أنه لا ينجو منها حتى يكفَّ لسانه أيضًا، وكم من خائضٍ في الفتن متلوث بها لسانه، وهو يظن أنه ناجٍ منها، وهو من أنشط الساعين فيها، المضرمين نارها.

ومن ثم قال وهيب بن الورد -رحمه الله-:" وجدتُ العزلة في اللسان ". (الصمت لابن أبي الدنيا رقم: ٣٨)

١- ما النجاة: استفهام عن السلامة من العذاب.

٢- "بصائر في الفتن" لمحمد بن إسماعيل المقدم – حفظه الله- بتصرف واختصار.

– **وعن عبد الله بن المبارك قال:" قال بعضهم في تفسير العزلة:**" هو أن يكون مع القوم، فإن خاضوا في ذكر الله فخُض معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت ". (المصدر نفسه: رقم٣٧)

– **وعن حذيفة ﷺ قال:" إن الفتنة وُكِّلَتْ بثلاث: بالحادِّ[١] النِّحْرِير[٢] الذي لا يرتفع له شيء إلا قمعه بالسيف، وبالخطيب الذي يدعو إليها[٣] وبالسيد[٤]، فأما هذان فتبطحهما لوجوههما، وأما السيد فتبحثه، حتى تبلو ما عنده** ". (حلية الأولياء: ٢٧٤/١)

– **وعن ابن مسعود ﷺ أنه قال لما ذُكِرَتْ عنده الفتن وسُئل:**

" أي أهل ذلك الزمان شر؟ قال: "كل خطيب مِسْقَعٍ[٥] وكل راكب مُوضِع[٦] " (انظر شرح السنة:١٦/١٥).

والنصوص التالية تُجَسِّدُ لنا خطورة وَقْعِ اللسان في الفتن:

فقد أخرج أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو –رضي الله عنهما– أن رسول الله ﷺ قال:

" تكون فتنة تَسْتَنْظِفُ[٧] العرب، قتلاها في النار[٨]، اللسان أشدُّ[٩] من وقع السيف ".

١– الحادُّ: النشيط القوى القلب أو الطائش.

٢– النِّحْرِيرُ: العالم الحاذق في عمله، ومراده: أن مثل هذا المتهور لا رجاء له في النجاة؛ لأنه يفكر بسيفه.

٣– وهذا كسابقه صاحب سيف، لكن سيفه لسانه.

٤– لأن الفتنة امتحانٌ له.

٥– الخطيب المسقع والمِصْقَع: البليغ، أو مَن لا يُرْتَجُ عليه في كلامه ولا يتتعتع، وإنما قال ابن مسعود ﷺ ذلك؛ لأن الأول محرِّضٌ على الفتنة بلسانه، والآخر بسنانه، فاجتمع الشَّرَّان: شر القول، وشر العمل.

٦– والراكب الموضع في الفتنة: المُسْرِعُ فيها.

٧– تستنظف العرب: أي: تستوعبهم هلاكًا، يقال: استنظفتَ الشيء، إذا أخذته كلَّه، ومنه قولهم: استنظفت الخراج، ولا يقال: نَظَّفْتَهُ. في "النهاية":٧٩/٥). وقال القاري: "أي: تطهرهم من الأرذال وأهل الفتن" (نقله في تحفة الأحوذي:٤٠٢/٦).

٨– قال القاضي –رحمه الله–: "المراد "بقتلاها": مَن قُتِل في تلك الفتنة، وإنما هم من أهل النار؛ لأنهم ما قصدوا بتلك المقاتلة والخروج إليها إعلاء دين أو دفع ظالم أو إعانة محق، وإنما كان قصدهم التباغي والتشاجر طمعًا في المال والملك.

٩– اللسان فيها أشد: أي: وقعه وطعنه على تقدير مضاف، ويدل عليه رواية: "إشراف اللسان" أي: إطلاقه وإطالته أشد من وقع السيف؛ لأن السيف إذا ضُرِب به أثَّر في واحد، واللسان تضرب به في تلك الحالة ألف نسمة" (كما في تحفة الأحوذي:٤٠٣/٦).

قال القرطبي –رحمه الله–: "قوله: "اللسان فيها أشد من وقع السيف" أي: بالكذب عند أئمة الجور، ونقل الأخبار إليهم، فربما ينشأ عن ذلك من النهب والقتل والجلد والمفاسد العظيمة أكثر مما ينشأ من وقوع الفتنة نفسها". اهـ (التذكرة:٢٤٩/٢).

– وأخرج أبو داود بسند فيه مقال عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:
" ستكون فتنة صَمَّاء بكْمَاءُ عَمْيَاء[1]، مَن أشرف لها اسْتَشْرَفت له، وإشراف اللسان فيها كوقوع السيف ". (ضعيف أبي داود: رقم ٩١٧)

– وأخرج ابن ماجه بسند فيه مقال عن ابن عمر–رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله ﷺ:
" إياكم والفتن، فإن اللسان فيها مثل وقع السيف ". (ضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه: رقم٨٦٠).

– وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن عبد الله بن عمرو–رضي الله عنهما– قال:
" بينما نحن حول رسول الله ﷺ إذ ذكروا الفتنة – أو ذُكِرت عنده – فقال: "إذا رأيتم الناس قد مَرِجَتْ عهودُهم، وخَفَّت أماناتهم وكانوا هكذا – وشبَّك بين أصابعه – قال: فقمتُ إليه، فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك؟ قال: الزم بيتك، واملكْ عليك لسانك، وخُذْ بما تعرف، ودَعْ ما تُنكِر، وعليك بأمر خاصةِ نفسك، ودَع عنك أمر العامة ". (الصحيحة: رقم ٥٠٢)

تَوَرُّع السلف عن آفات اللسان في الفتن

– قال طارق بن شهاب:" كان بين خالد وسعد كلام، فذهب رجل يقع في خالدٍ عند سعد، فقال: مه! إن ما بيننا لم يبلغ ديننا ". (حلية الأولياء:٩٤/١)
– وسمع عمَّار بن ياسر ﷺ رجلًا ينال من أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– فقال له:
" اسكُتْ مقبوحًا منبوحًا، فأشهد أنها زوجة رسول الله ﷺ في الجنة ".
– وفي رواية:" اغرب مقبوحًا أتؤذي محبوبة رسول الله ﷺ؟!". (أخرجه ابن عساكر، وابن سعد:٦٥/٨)

– وقال ثابت البناني:" إن مُطَرِّفَ بن عبد الله قال:" لبثتُ في فتنة ابن الزبير تسعًا أو سبعة ما أُخْبِرتُ فيها بخبر، ولا استخبرت فيها عن خبر".

ونقل المناوي عن القاضي ابن العربي قوله: "وجه كونه أشد: أن السيف إذا ضرب ضربةً واحدةً مضت، واللسان يضرب به في تلك الحالة الواحدة ألف نسمة، ثم هذا يحتمل أنه إخبار عمَّا وقع من الحروب بين الصدر الأول، ويحتمل أنه سيكون، وكيفما كان فإنه كان من معجزاته؛ لأنه إخبار عن غيب". اهـ (فيض القدير:١٠١/٤).

١– وصف الفتنة بأوصاف أصحابها: أي: يعمي الناس فيها، فلا يرون منها مخرجًا، ويصمون عن استماع الحق.

– **عن أبي راشد قال:**" جاء رجلٌ من أهل البصرة إلى عبيد الله بن عمر، فقال: إني رسول إخوانك من أهل البصرة إليك، فإنهم يقرئونك السلام، ويسألونك عن أمر هذين الرجلين: عليّ وعثمان، وما قولك فيهما؟ فقال: هل غير؟، قال: لا، قال: جَهِّزوا الرجل، فلما فُرِغ من جهازه، قال: اقرأ عليهم السلام، وأخبرهم أن قولي فيهم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:١٣٤)

– **وعن شريك قال:**" سألت إبراهيم بن أدهم عمَّا كان بين عليّ ومعاوية، فبكى، فندمت على سؤالي إياه، فرفع رأسه، فقال:" إنه مَن عرف نفسه اشتغل بنفسه، ومَن عرف ربه اشتغل بربه عن غيره". (حلية الأولياء: ١٥/٨)

– **وقال الشافعي–رحمه الله–: " قيل لعمر بن عبد العزيز:** "ما تقول في أهل صِفِّين؟، قال: تلك دماء طهَّر الله يدي منها، فلا أحب أن أخضب لساني بها ". (العزلة للخطابي: ص٤١)

– **وعن الهيثم بن عبيد الصيدلاني قال:**" سمع ابن سيرين رجلًا يَسُبُّ الحجاج، فقال: مه أيها الرجل! إنك لو وافيت الآخرة كان أصغر ذنب عملته قطُّ أعظم عليك من أعظم ذنبٍ عمله الحجَّاج، واعلم أن الله ﷻ حَكَمٌ عدْلٌ، إن أخذ من الحجاج لمن ظلمه شيئًا فشيئًا، أخذ للحجاج ممَّن ظلمه، فلا تشغلنَّ نفسك بسبِّ أحدٍ ". (شعب الإيمان: ٢٨٧/٥)

رُبَّ قولٍ يسيل منه دم

لا ينحصر شؤم إطلاق اللسان في الفتن على الوقيعة والفرقة فقط، بل ربما يتعدَّى الأمر حتى يصل إلى سفك الدماء، وكثير من الفتن تُبْذَر بذرتها في مجالس الغيبة والوقيعة، ولا يتوقع أصحابها أن تبلغ ما بلغت، وإذا بها تشتعل وتضطرم رويدًا رويدًا حتى يستعصي إطفاؤها حتى على الذين أوقدوا شرارتها، فهؤلاء الغيابون أكلة لحوم البشر هم من الذين وصفهم رسول الله ﷺ فقال:" إن من الناس مفاتيح للخير، مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر، مغاليق للخير، فطوبى لَمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويلٌ لَمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه". (أخرجه ابن ماجه وحسَّنه الألباني بطرقه في الصحيحة:١٣٣٢)

خَلِّ جنبيك للرامِ وامضِ عنه بسلامِ
مُتْ بداء الصمتِ خيرٌ لك من داء الكلام
رُبما استُفتِح بالقول مغاليقُ الحمام
رُبَّ قولٍ ساقَ آجالَ فئامٍ وفئامِ
إنما السالم مَن ألجم فاه بلجَامِ

وهاك هذه الشواهد التاريخية التي تدل على أنه "رُبَّ قولٍ يسيل منه دمٌ"

قال أبو معبد عبد الله بن عكيم الجهيني – تابعي جليل – في خطبة له:

" لا أعين على دم خليفة أبدًا بعد عثمان، فقال رجل متعجبًا: يا أبا معبد، أَوَ أَعَنْتَ على دمه؟، فقال أبو معبد: "إني لأرى ذكر مساوئ الرجل عونًا على دمه " (الطبقات لأبي سعد:٣٠/٨٠)

– وقد مرَّ بنا الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" إن العبد ليتكلَّم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالًا، يهوي بها في جهنم ".

فهؤلاء الساعون بالوشاية والنميمة، أحصوا اجتهادات أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ وصوروها بحسب ما تتخيل عقولهم الضعيفة، وقلوبهم المريضة، فاتخذوا ذلك سُلَّمًا إلى الفتنة، وحين علم حذيفة ﷺ بمقتل عثمان بن عفان ﷺ قال: " اللهم العن قَتَلَتَهُ وشُتَّامَه، اللهم إنا كنا نعاتبه ويعاتبنا، فاتخذوا ذلك سُلَّمًا إلى الفتنة، اللهم لا تُمِتْهم إلا بالسيوف ". (الكامل لابن الأثير)

وأخرج البخاري عن ابن عمر –رضي الله عنهما– أنه قال:" فلما تفرَّق الناس خطب معاوية فقال: "مَن كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليُطْلع لنا قَرْنَهُ فلنحن أحق به منه ومن أبيه، قال حبيب بن مسلمة: فهلا أجبته، قال عبد الله بن عمر: فحللت حُبْوَتِي وهممتُ أن أقول: أحَقُّ بهذا الأمرِ منك مَن قاتلك وأباك على الإسلام، فخشيتُ أن أقول كلمة تُفَرِّقُ بين الجمع وتسفك الدم، ويحمل عني غير ذلك، فذكرتُ ما أعدَّ الله في الجنان، فقال الحبيب بن مسلمة لابن عمر –رضي الله عنهما–: "حُفِظْتَ وعُصِمْتَ ".

– قال عبد الواحد بن زيد للحسن البصري – وكلاهما من التابعين–:" يا أبا سعيد، أخبرني عن رجل لم يشهد فتنة ابن المهلب ابن أبي صفرة إلا أنه عاون بلسانه، ورضي بقلبه، فقال الحسن: يا بن أخي كم يد عقرت الناقة؟ قلت: يد واحدة، قال: أليس قد هلك القوم جميعًا برضاهم وتماليهم؟!".

– عن رشيد الخبَّاز قال:" خرجت مع مولاي إلى مكة، فجاورنا، فلما كان ذات يوم، جاء إنسان فقال لسفيان: يا أبا عبد الله، قدم اليوم حسنٌ وعليّ ابنا صالح، قال: وأين هما؟ قال: في الطواف، قال: إذا مرَّا فأرينهما، فمرَّ أحدهما، فقلت: هذا عليّ، ومرَّ الآخر، فقلت: هذا حسن، فقال: أما الأول فصاحِب آخرة، وأما الآخرُ فصاحب سيف لا يملأ جوفه شيء، قال: فيقوم إليه رجل ممَّن كان معنا، فأخبر عليًّا، ثم مضى مولاي إلى عليّ يسلم عليه، وجاء سفيان يُسلِّم عليه، فقال له عليّ: يا أبا عبد الله، ما حملك على أن ذكرت أخي أمس بما ذكرته؟ ما يُؤمنك أن تبلغ هذه الكلمة ابن أبي جعفر، فيبعث إليه، فيقتله؟! فنظرت إلى سفيان، وهو يقول: أستغفر الله، وجادتا عيناه ". (سير أعلام النبلاء:٧/٣٦٦)

– وعن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال:" كنا مع رجاء بن حَيْوَة فتذاكرنا شكر النعم، فقال: ما أحدٌ يقوم بشكر نعمة، وخلفنا رجل على رأسه كساء، فقال: ولا أمير المؤمنين؟ فقلنا: وما ذِكْرُ أمير المؤمنين هنا؟!

وإنما هو رجل من الناس، قال: فغفلنا عنه، فالتفت رجاء فلم يره، فقال: أُتيتم من صاحب الكساء، فإن دعيتم، فاستُحْلِفتم، فاحلفوا، قال: فما علمنا إلا بحَرَسِي قد أقبل عليه [1]، قال: هيه يا رجاء، يُذكَر أمير المؤمنين فلا تحتج له؟! قال: فقلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟، قال: ذكرتم شكر النعم، فقلتم: ما أحد يقوم بشكر نعمة، قيل لكم: ولا أمير المؤمنين؟! فقلت: أمير المؤمنين رجل من الناس! فقلت: لم يكن ذلك، قال: آلله، قلت: آلله، قال: فأمر بذلك الرجل الساعي، فضرب سبعين سوطًا، فخرجت وهو متلوث بدمه، فقال: هذا وأنت رجاء ابن حَيْوَة، قلت: سبعين سوطًا في ظهرك خير من دم مؤمن، قال ابن جابر: فكان رجاء بن حَيْوَة بعد ذلك إذا جلس في مجلس يقول ويتلَفَّتُ: احذروا صاحب الكساء ". (سير أعلام النبلاء: ٥٦١/٤)

قال الشاعر:

يموت الفتي من عثرةٍ بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرِّجْلِ
فعثرته بلســـانه تُذْهب رأسه ... وعـــثرته بالرِّجْـــلِ تبرا علـــى مهلِ

وقال آخر:

وجُرح السيف تُدْمِلُه فيبرا ... وجُرحُ الدهر ما جَرَحَ اللسانُ
جراحاتُ الطِّعان لها التئامٌ ... ولا يلتأمُ ما جَرَحَ اللســـانُ[2]

وقال آخر:

وجرح السيف يأسوه المداوى ... وجُرحُ القول طولَ الدهر دامي

إكمالًا للموضوع واتمامًا للفائدة: أُذكِّر بفضل ترك فضول الكلام والترغيب فيه:

وصف هند بن أبي هالة ﷺ منطق رسول الله ﷺ للحسن بن علي –رضي الله عنهما– فقال:
"... كان طويل السكوت، لا يتكلَّمُ في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه باسم الله تعالى، ويتكلَّم بجوامع الكلم، كلامه فَصْل، لا فضول ولا تقصير". (مختصر الشمائل المحمدية للترمذي للألباني: ص٢٠)

– وأخرج النسائي من حديث عبد الله بن أبي أوفى –رضي الله عنهما– قال:
" كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة ". (صححه الألباني في سنن النسائي: ١٣٤١)
والمقصود من اللغو هنا كما قال الكفوي –رحمه الله–:" كُلُّ مطروحٍ من الكلام لا يعتد به". (الكليات:٧٧٨)

١– يبدو أن في هذا الموضع سقطًا ولعله: "فاصطحبه، وأدخله على أمير المؤمنين".

٢– المحاسن والمساوئ للبيهقي: ص ٣٨١.

– وقد مر بنا قول الحسين بن علي –رضي الله عنهما–عندما سأل أباه عن مخرج النبي ﷺ كيف كان يصنع فيه؟ فقال ﷺ:" كان رسول الله ﷺ يَخْزنُ [1] لسانه إلا فيما يعنيه...".

(مختصر الشمائل: ص٢٣)

– وقال أيضًا: "كان ﷺ لا يذمُّ أحدًا، ولا يعيبه، ولا يطلب عورته[2]، ولا يتكلَّم إلا فيما رجا ثوابه".

(المصدر السابق: ص٢٥)

وأخرج البيهقي والطبراني والبغوي من حديث ركب المصري[3] قال: قال رسول الله ﷺ:" طوبى[4] لمَن عمل بعمله، وأنفق من ماله، وأمسك الفضل من القول ".

(قال ابن عبد البر: "حديث حسن. ولكن الراجح ضعفه")

– ومن الأمثلة التي تدل على ترك فضول الكلام ما رواه الترمذي وأبو داود وابن أبي الدنيا واللفظ له عن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال: " قدمت على رسول الله ﷺ في رهط من بني عامر، فقالوا: أنت والدنا، وأنت سيدنا، وأنت أفضلنا علينا فضلًا، وأنت أطولنا علينا طولًا، وأنت الجفنة الغرَّاء، وأنت... وأنت، فقال: قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان ".

يقول الغزالي –رحمه الله–:" وفي هذا الحديث إشارة إلى أن اللسان إذا أطنب بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها ". اهـ

وقيل:

خيرُ الكـــلامِ قليلٌ ... على كثيرٍ دليلُ
والعِيُّ معنى قصيرٌ ... يَحْويْه لفظٌ طويل
وفي الكلام فضولٌ ... وفيه قالَ وقِيل

وفي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد من حديث علقمة عن بلال بن الحارث المزني ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" إن الرجل ليتكلَّم بالكلمة من رضوان الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله ﷻ له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلَّم بالكلمة من سُخط الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه ".

فكان علقمة يقول:" كم من كلامٍ منعني حديث بلال بن الحارث ".

١– يخزن: يحبس.

٢– لا يطلب عورته: أي لا يطلب عورة أحد، وهي ما يُستحي منه إذا ظهر، والمعنى: لا يُظهر ما يريد الشخص ستره، ويخفيه عن الناس.

٣– وركب المصري فيه خلاف، قال البغوي: "لا أدري أسمع النبي ﷺ أم لا، وقال ابن منده: مجهول لا نعرف له صحبة، وروى هذا الحديث البزار من حديث أنس ﷺ بسند ضعيف. (ضعيف الترغيب والترهيب:١٧٠٥)

٤– طوبى: شجرة عظيمة في الجنة، يخرج منها ثياب أهل الجنة.

– **ومِمَّا يرغب في ترك فضول الكلام ما مر بنا في الحديث الذي أخرجه الطبراني في "الكبير" عن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" إنك لم تزل سالمًا ما سكت، فإذا تكلَّمت كُتِبَ لك أو عليك"** (صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب)

– **وكان مجاهد –رحمه الله– يقول في كتاب "الزهد لهناد:٢/٥٣٥":**

" ما من شيء يتكلَّم به العبد إلا أُحصِي عليه، حتى أنينه في مرضه ".

الآثـــار التي تحث على ترك فضول الكلام:

– **قيل لعيسى عليه السلام:" دُلَّنا على عملٍ ندخل به الْجَنَّة، قال: لا تنطقوا أبدًا، قالوا: لا نستطيع ذلك، فقال: فلا تنطقوا إلا بخير".** (إحياء علوم الدين:٣/١٢٠)

– **وقال عيسى عليه السلام:" طوبي لَمن بكى على خطيئته، وخَزَنَ لسانه[١]، ووسعه بيته ".** (حسن السمت في الصمت:٦٥).

وروي عنه أيضًا أنه قال لأحد أصحابه:" إذا رأيت قساوةً في قلبك، ووهنًا في بدنك، وحرمانًا في رزقك، فاعلم بأنك قد تكلَّمت بما لا يعنيك ". (تنبيه الغافلين: ص١٦٧)

وروي عنه أيضًا أنه قال:" كلُّ كلام ليس بذكر الله فهو لغو، وكلُّ سكوت ليس بفكر فهو غفلة وكلُّ نظرٍ ليس بعبرة فهو لهو، فطوبى لَمن كان كلامه ذكرًا، وسكوته تفكُّرًا، ونظره عبرة ".

– **وقال سليمان بن داود–عليهما السلام–:" إن كان الكلام من فضَّةٍ، فالسكوت من ذهبٍ ".** (إحياء علوم الدين:٣/١٢٠)

– **وقال عمر بن الخطاب ﷺ:" مَن كَثُرَ كلامه كَثُرَ سَقَطُه[٢]، ومَن كَثُرَ سقطه كَثُرَت ذنوبه، ومَن كَثُرَت ذنوبه كانت النار أولى به ".** (جامع العلوم والحكم: ص١٦١).

– **وقال عبد الله بن مسعود ﷺ:" أنذرتكم فضول الكلام، بحسب أحدكم ما بلغ حاجته ".**(الصمت لابن أبي الدنيا:٢٣٩)

– **وقال أبو هريرة ﷺ:" لا خير في فضول الكلام ".**

– **ويقول عبد الله بن عباس–رضي الله عنهما–:" خمس لَهُنَّ أحبُّ إلى من الدُّهْم[٣] المُوقَفَة: لا تتكلَّم فيما لا يعنيك، فإنه فضلٌ، ولا آمَنُ عليك الوزر، ولا تتكلَّم فيما يعنيك حتى تجد له موضعًا، فإنَّه رُبَّ متكلمٍ في**

١– خزن لسانه: أي حبسه.

٢– سقطه: يعني الخطأ في القول والفعل.

٣– الدهم: جمع أدهم، وهو من الخيل ما بين الأشقر والأسود، وناقة دهماء: إذا اشتدت وَرقَتُها حتى ذهب البياض الذي فيها.

أمر يعنيه، قد وضَعَه، في غير موضعه فيعنت، ولا تُمَارِ[1] حليمًا ولا سفيهًا، فإن الحليم يقليك، وإن السفيه يؤذيك، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به، واعْفِهِ مِمَّا تحب أن يعفيك منه، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به، واعمل عمل رجلٍ يعلم أنه مجازى بالإحسان، مأخوذ بالإجرام ". (إحياء علوم الدين:١٢٢/٣)

– **ويقول عمرو بن العاص** ﷺ:" **الكلام كالدواء، إن أقللت منه نفع، وإن أكثرت منه قتل** ".

– **ويقول عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله عنهما–:" دع ما لست منه في شيء، ولا تنطق فيما لا يعنيك، واخزن[2] لسانك كما تخزن وَرِقَكَ[3]** ". (إحياء علوم الدين: ١٢٢/٣)

– **وعن عبد العزيز بن أبي رَوَّاد –رحمه الله– قال:**" قال رجل لسلمان ﷺ أوصني، قال: لا تكلم، قال: " وكيف يصبر رجل على أن لا يتكلم؟ قال:" فإن كنت لا تصبر على الكلام فلا تتكلَّم إلا بخير أو اصمت ". (الصمت لابن أبي الدنيا: ص٢١٥)

– **يقول أحدهم:**

عوِّد لسانك قلة اللفظ ... واحفظ كلامك أَيَّمَا حفظ

إياك أن تعظ الرجال وقد ... أصبحت مُحْتَاجًا إلى الوعظ

(أدب الدنيا والدين للماوردي: ٨٧).

– **وقال الأوزاعي –رحمه الله–**: "كتب إلينا عمر بن عبد العزيز **–رحمه الله–** برسالة لم يحفظها غيري، وغير مكحول. قال فيها: "أما بعد: فإنه مَن أكثر ذكر الموت، رضي من الدنيا باليسير، ومن عَدَّ كلامه من عمله، قَلَّ كلامه إلا فيما يعنيه". (إحياء علوم الدين:١١٢/٣) (وكذا قال الفضيل –رحمه الله–)

– **ويقول عبد الله بن المبارك –رحمه الله–: "قال بعضهم في تفسير العزلة:**

"هو أن تكون مع القوم، فإن خاضوا في ذكر الله فخُضْ معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت".

– **وقال أكثم بن صيفي –رحمه الله–**: "المكثار– أي الذي يُكثرُ من الكلام– كحاطب الليل".

قال أبو عبيد: "وإنما شبهه بحاطب الليل؛ لأنه ربما نهشته الحية، أو لسعته العقرب في احتطابه ليلًا".

١– تمار: تجادل.

٢– وأخزن: أي احبس.

٣– وَرِق: بكسر الراء يعني الفضة وقد تُسكَّنُ.

فكذلك كثير الكلام فيما لا يعنيه ربما أصابه في إكثاره من الكلام بعض ما يكره.

– **وقيل لرجل:**" بم سادكم الأحنف؟ فوالله ما كان بأكبركم سنًا ولا بأكثركم مالًا، فقال: بقوة سلطانه على لسانه ".

– **وقال بعض الحكماء:**" مَن نطق في غير خير فقد لغا، ومَن نظر في غير اعتبارٍ فقد سها، ومَن سكت في غير فكرٍ فقد لها ".

– **وقيل للقمان الحكيم:**" **ما بلغ من حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كُفِيته، ولا أتكلَّم بما لا يُعْنِيني** ".

وروي عنه أيضًا أنه قيل له:" **ما بلغ بك ما نرى؟ قال: صِدْق الحديث، وأداء الأمانة، وتركي ما لا يعنيني** ". (الآداب الشرعية:١/٣٩)

– **وقد روي عنه أيضًا:**" **أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسردُ درعًا، فجعل يتعجَّبُ مما يرى، فأراد أن يسأله عن ذلك، فمنعته حكمته فأمسك، فلما فرغ داود عليه السلام قام ولبس الدرع، ثم قال: نِعْم الدرع للحرب، فقال لقمان: الصمت حكمة، وقليل فاعله** ". (مختصر منهاج القاصدين: ص١٨٤)

– **وعن المُعَلَّى قال: "قال مورق العجلي:**" أَمْرٌ أنا في طلبه منذ كذا وكذا سنة، لم أقدر عليه، ولستُ بتاركٍ طلبَه أبدًا، قالوا: وما هو يا أبا المعتمر؟ قال: الكفُّ عمَّا لا يعنيني". (الزهد للإمام أحمد: ص٣٠٥) (الصمت لابن أبي الدنيا: ٥٧٠).

– **وعن علي بن حملة قال:**" **قال عبد الله بن أبي زكريا الدمشقي:**" عالجتُ الصمت عمَّا لا يعنيني عشرين سنة، قَلَّ أن أقدر منه على ما أريد ". (الحلية:٥/١٤٩) (الزهد لابن أبي عاصم: ص٣٩)

– **وقال أبو المعتمر البصري:**" تعلمت الصمت في عشر سنين، وما قلت شيئًا قط إذا غضبتُ أندم عليه إذا زال غضبي ". (نزهة الفضلاء:١/٣٩٧)

– **وروى أبو عبيدة عن الحسن –رحمه الله– أنه قال:**

" من علامة إعراض الله تعالى عن العبد، أن يجعل شغله فيما لا يعنيه خذلانًا من الله تعالى".

– **وقال الحسن أيضًا:**" يا عجبًا لابن آدم، حافظاه على رأسه، لسانه قلمهما، وريقه مدادهما، وهو بين ذلك يتكلَّم فيما لا يعنيه ". (الزهد للإمام أحمد: ص٤٣)

– **وقال أيضًا:**" مَن كَثُرَ ماله كَثُرَت ذنوبه، ومَن كَثُرَ كلامه كَثُرَ كذبه، ومَن ساء خلقه عَذَّب نفسه ".

(الإحياء:٣/١٥٥) – **ويقول سهل بن عبد الله:**" مَن تكلم فيما لا يعنيه حُرِم الصدق ".

– **وعن زيد بن أسلم قال:**" دخلنا على ابن أبي دُجانة وهو مريض، ووجهه يتهلَّل، فقال: ما من عملي شيء أوثق في نفسي من اثنتين: لم أتكلَّم فيما لا يعنيني، وكان قلبي للمسلمين سليمًا ".

(الصمت لابن أبي الدنيا:٧٥).

– **وكان الربيع بن خثيم –رحمه الله– يقول:**" لا خير في الكلام إلا في تسع: تهليل، وتكبير، وتسبيح، وتحميد، وسؤالك من الخير، وتعوّذُك من الشر، وأمرُك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، وقراءتك للقرآن".

– **وقال يزيد بن أبي حبيب –رحمه الله–:**" مَن فتنة العالم أن يكون الكلام أحبّ إليه من الاستماع، فإن وجد مَن يكفيه فإن في الاستماع سلامة، وفي الكلام تزيين وزيادة ونقصان ". (الإحياء ١٥٥/٣)

– **وكان مالك بن أنس –رحمه الله– يعيب كثرة الكلام فيقول:**" لا يوجد إلا في النساء أو الضعفاء ". (الآداب الشرعية لابن مفلح:٣٧/١)

– **وكان محمد بن الفضل الحارثي –رحمه الله– يقول: "كان يقال:**" كثرة الكلام تذهب الوقار". (حسن السمت في الصمت للسيوطي: ص٢٨)

– **وقال رياح القيسي –رحمه الله–: "قال لي عتبة الغلام:**

" يا رياح، إن كنت كلما دعتني نفسي إلى الكلام تكلَّمت، فبئس الناظر لها أنا، يا رياح! إن لي موقفًا يغتبط فيه بطول الصمت عن الفضول ".

– **وقال أبو جعفر محمد بن علي –رحمه الله–:**

" كفى عيبًا أن يبصر العبد من الناس، ما يعمى عليه من نفسه، وأن يُؤذِي جليسه فيما لا يعنيه ".

– **وكان عبد الله بن أبي زكريا:**" إذا خاض جلساؤه في غير ذكر الله، رأيته كالساهي، فإذا خاضوا في ذكر الله، كان أحسن الناس استماعًا ". (الصمت لابن أبي الدنيا:٧/٥).

– **وقال أحدهم:**" العجب ممَّن يتكلَّم بكلمة إن هي رُفعت ضرّته، وإن لم ترفع لم تنفعه".

– **وكان أحدهم رأى بيتًا فقال:**" متى بُنِيَ هذا البيت، ثم قال ما لكِ يا نفسي تتكلَّمين فيما لا يعنيك، والله لأعاقبنَّكِ بصيام سنة ".

– **ويقول إبراهيم بن عبد العزيز التيمي –رحمه الله–:**" المؤمنُ إذا أراد أن يتكلَّم نظر، فإن كان كلامه له، تكلَّم، وإن كان عليه، أمسَكَ عنه، والفاجر إنما لسانه رَسْلًا [1] رَسْلًا ". (الصمت لابن أبي الدنيا:٢٤٧).

١- رَسْلًا: ليِّنًا مسترخيًا لا تؤدة فيه.

– وقال الإمام الشافعي –رحمه الله– لصاحبه الربيع:

" يا ربيع، لا تتكلَّم فيما لا يعنيك، فإنك إذا تكلَّمت بالكلمة ملكتك و لم تملكها ".

– ويقول أبو علي الدَّقاق–رحمه الله–:" لو كنتم تشترون الكاغد– أي الورق– للحفظة لسكتُّم عن كثير من الكلام ". (شرح الأربعين النووية – حديث رقم ١٥: ص٥٠)

– وقال مالك بن دينار–رحمه الله–:" لو أن القوم كُلِّفُوا الصحف؛ لأقلوا المنطق ". (الحلية: ٣٧٥/٢)

– يقول بعض الحكماء:" إن جسد ابن آدم ثلاثة أجزاء: أولها القلب، والثاني اللسان، والثالث الجوارح، وقد أكرم الله تعالى كل جزء بكرامة، فأكرم القلب بمعرفته وتوحيده، وأكرم اللسان بشهادة "أن لا إله إلا الله"، وتلاوة كتابه، وأكرم الجوارح بالصلاة والصوم وسائر الطاعات، ووكل على كل جزء رقيبًا حفيظًا، فتولَّى سبحانه حفظ القلب بنفسه، فلا يعلم ما في ضمير العبد إلا الله، ووكل على لسانه الحفظة، **قال تعالى:** ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٨)، وسلّط على الجوارح الأمر والنهي. ثم إنه يريد من كل جزء وفاء، فوفاء القلب أن يثبت على الإيمان، وألا يحسد ولا يخون ولا يمكر، ووفاء اللسان لا يغتاب، ولا يكذب، ولا يتكلَّم بما لا يعنيه، ووفاء الجوارح ألا يعصي الله تعالى ولا يؤذي أحدًا من المسلمين". اهـــ.

علاج فضول الكلام

يقول الغزالي –رحمه الله– كما في كتابه "الإحياء"(١٥٣/٣):

" وعلاج ذلك أن يعلم أن الموت بين يديه، وأنه مسئول عن كل كلمة، وأن أنفاسه رأس ماله، وأن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين، فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين ". اهـــ.

فعلى العاقل الذي يرجو الله والدار الآخرة أن يكون مقبلًا على شأنه، حافظًا للسانه، بصيرًا بزمامه، وأن يعد كلامه من عمله، فمَن عدّ كلامه من عمله قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه".

– ومما يعين على ترك المرء ما لا يعنيه تذكُّر أن الواجبات أكثر من الأوقات، وأن العمر قصير كما أخبر بذلك رسول الهدى في الحديث الذي أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم أن النبي ﷺ قال:

" **أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يَجُوزُ ذلك** ". (صحيح الجامع:١٠٧٣)

فمثل هذا العمر الذي لا يكاد يتَّسِع لما يلزم ويجب، أفيتسع للفضول وما لا يعني؟!

– والمرء أيضًا مسئول عن عمره، فيم أفناه؟

كما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

" **لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه، حتى يُسْأَلَ عن خمس: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه**

فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه؟ وماذا عملَ فيما عَلِمَ؟". (صحيح الجامع: ٧٢٩٩) (الصحيحة:٩٤٦)

– وفي رواية أبي برزة الأسلمي وهي أيضًا عن الترمذي أن الحبيب النبي ﷺ قال:

" لا تزول قدما عبدٍ حتى يُسْأَلَ عن أربع: عن عمره فيم أفناه؟ وعن علمه ما فعل فيه؟ وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟ ". (صحيح الجامع ٧٣٠٠)

فاعلم أخي الحبيب... أن عمرك هو أغلى ما تملك، فلا تنفقه إلا فيما يعود عليك بالنفع، ولو أنفق الإنسان منا جميع ما يملك ليسترجع لحظة واحدة من لحظات حياته قد مضت، ما استطاع، فمن جهلنا بقيمة الوقت نفرح بمغيب شمس كل يوم، ونحن لا ندرك أن هذه نهاية يوم من أعمارنا لن يعود أبدًا، صحائف طويت، وأعمال أُحصيت، وأنفاس انقضت.

– يقول الحسن البصري –رحمه الله–: "ما مر يوم على ابن آدم إلا قال له:" ابن آدم إني يوم جديد وعلى ما تعمل فيّ شهيد، وإذا ذهبت عنك لم أرجع إليك، فقدِّم ما شئت تجده بين يديك، وأخِّر ما شئت فلن يعود أبدًا إليك ".

– وكان سعيد بن جبير–رحمه الله– يقول:" كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة ". (تهذيب الكمال:١٠/٣٦٦) (قصر الأمل: ص١٠٦)

وصدق سعيد بن جبير–رحمه الله– فهناك مَن توقفت أنفاسه، وانقطعت أعماله، فلا يستطيع أن يزيد في حسناته حسنة واحدة، وأقصى أمنية له، أن يعود إلى الدنيا ليتحلَّل من المظالم، ويكثر من فعل الطاعات، ولا ينفق لحظة من لحظات حياته إلا في مرضاة رب الأرض والسماوات، ولكن حيل بينه وبين ما يشتهي ".

فأنت أخي الحبيب في أمنية كثير من الأموات، فلا تُضَيِّع أوقاتك في غير طاعة، ولا تنفقها فيما لا يعود عليك بالنفع، فتندم يوم لا ينفع الندم، **وقد روي في الحديث الذي أخرجه البيهقي:**

" ما من ساعةٍ تمر بابن آدم لا يذكر الله فيها إلا تحَسَّر عليها يوم القيامة ".

– ويقول النبي ﷺ أيضًا كما عند الترمذي:" **مَن قال: سبحان الله العظيم وبحمده؛ غُرِسَت له نخلة في الْجَنَّة ".**

فكم ضيَّعنا من نخيل؟ كم ضيَّعنا من نخيل؟

– **يقول ابن قدامة –رحمه الله–:** "فاغتنم – رحمك الله– حياتك النفيسة، واحتفظ بأوقاتك العزيزة، واعلم أن مدة حياتك محدودة، وأنفاسك معدودة، فكل نَفَسٍ ينقص به جزء منك، والعمر كله قصير، والباقي منه هو اليسير، وكل نفس جوهرة نفيسة لا عدل لها، ولا خلف منها.

فإن هذه الحياة اليسيرة خلود الأبد في النعيم المقيم أو العذاب الأليم، وإذا عادلت هذه الحياة بخلود الأبد علمت أن كل نفس يعدل أكثر من ألف ألف ألف عام في نعيم لا خطر له، أو خلاف ذلك.

فلا تُضيِّع جواهر عمرك بغير طاعة، وتذهبها بغير عوض، واجتهد ألا يخلو نَفَسٌ من أنفاسك إلا في عمل طاعة، أو قربة تتَقَرَّبُ بها، فإنه لو كان معك جوهرة من جواهر الدنيا لساءك ذهابها، فكيف تفرط في ساعاتك وأوقاتك، وكيف لا تحزن على عمرك الذاهب بغير عوض". اهـ.

فالسلف الكرام كانوا يدركون هذه الحقيقة، فكانوا لا يصرفون أوقاتهم فيما لا يعنيهم، بل تراهم في كل لحظة من لحظات حياتهم في طاعة أو قربة يتقَرَّبُون بها إلى الله تعالى.

– **فها هو داود الطائي كان يستَفُّ الفتيت ويقول:**" بين سفِّ الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية ".

– **وقال رجل لعامر بن عبد قيس:**" قف أكلمك. فقال عامر له: أمسك الشمس ".

– **وكان أبو مسلم الخولاني يقول:**" لو رأيت الجَنَّة عيانًا ما كان عندي مستزاد، ولو رأيت النار عيانًا ما كان عندي مستزاد ".

– **وها هو أبو البركات جد شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–:**

" إذا أراد أن يدخل الحمام للاغتسال، يأتي بابنه، ويقول: يا بُنيّ اجلس عند باب الحمام، واقرأ وارفع صوتك". يقول له ذلك حتى يستفيد من هذه اللحظات التي يقضيها في الخلاء ".

– **وصدق القائل حيث يقول:**

إذا مرَّ بي يومٌ و لم أقتبس هدى و لم أستفد علمًا فما ذاك من عمري

– **ويقول ابن الجوزي –رحمه الله– كما في كتابه "صيد الخاطر":**

" لما رأيت الزمان أشرف شيء والواجب انتهازه بفعل الخير كرهت ذلك– أي ما اعتاده الناس من كثرة الزيارة– وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعت الوحشة، وإن تقبَّلته منهم ضاع الزمان، فصرت أُدافع اللقاء جهدي، فإذا غلبت قصَّرت في الكلام لأتعجَّل الفراق، ثم أعددت أعمالًا لا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم؛ لئلا يمضي الزمان فارغًا، فجعَلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد (الورق)، وبري الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لابد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي ".

– **وكان عطاء بن أبي رباح –رحمه الله– يقول:**" إن مَن كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى أن تقرأه، أو تأمر بمعروف، أو تنهى عن منكر، أو تنطق بحاجتك في معيشتك التي لابد لك منها. أتنكرون أن عليكم حافظين، كرامًا كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم أن لو نشرت صحيفته التي أمْلَى صدر نهاره، كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه ".

(سير أعلام النبلاء:٥/٨٦) (الصمت لابن أبي الدنيا:٢٤٠)

– **وصدق القائل حيث قال:**

دع عنك ما قد فات في زمن الصبا واذكر ذنوبك وابكها يا مذنب

لـــم ينســـه الملكـــان حين نسيتـــه بل أثبتاه وأنت لاهٍ تلعبُ

وبعد...

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة

وأسأل الله– تعالى– أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منّي بقبول حسن، كما أسأله سبحانه وتعالى أن ينفع بها مؤلفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشرها.....إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا شأن أي عمل بشري فإنه يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صوابًا فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثم خطأ فاستغفر لي

وإن وجدت العيب فسد الخللا جلّ من لا عيب فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحًا ولوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه نصيبًا

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا والله – تعالى– أعلى وأعلم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك

المحتويات

تمهيد ٢
نبض الرسالة ٣
مقدمة: ٣
إذا استقام اللسان استقامت جوارح الإنسان. ٣
أولًا: فضل حفظ اللسان ٣
ثانيًا: فضل الصمت ٣
وصايا الرسول في حفظ اللسان والحث عليه، وبيان ثواب وأجر من قام بذلك. ٣
علاج فضول الكلام. ٤
إذا استقام اللسان استقامت جوارح الإنسان ٥
أولًا: فضل حفظ اللسان ٧
ثانيًا: فضل الصمت ١٢
تَحَفَّظْ من لسانك ليس شيء ١٧
أحقَّ بطول سجن من لسان ١٧
وصايا الرسول في حفظ اللسان والحث عليه، وبيان ثواب وأجر من قام بذلك. ٢١
والنصوص التالية تُجَسِّدُ لنا خطورة وَقْعِ اللسان في الفتن: ٢٤
تَوَرُّع السلف عن آفات اللسان في الفتن ٢٥